مجلة الرائد

العدد :٢٠٣ الموافق في جمادى الأخرة ١٤١٩ هجري ١٠/١٩٩٨ ميلادي

عنوان المقال : سنة الابتلاء –٤–	بقلم : د. موفق الحكيم

- علماء السوء -

وعلماء الآخرة تراهم قد عزوا بعلمهم ، وبرزوا بتقواهم ، يسعى إليهم الصغير والكبير ، ويوقرهم القريب والبعيد ، هم مصابيح الدنيا ، ومشاعل الحرية ، وأنوار الدين ، لا يخافون في الله لومة لائم ، ولا يطيعون مخلوقاً -مهما علا شأنه- في معصية الخالق ، أقوالهم قوانين يعمل بها ، وأعمالهم سنن يقتدى بها ، هم كما قال أحد الصالحين : « إن العلماء الذين يخشون الله هم الذين إذا علموا حراماً اجتنبوه ، وإذا علموا واجباً بادروا إليه ، وإذا علموا مكروهاً تنزهوا عنه ، أولئك هم الناجون عند الله ، وهم الذين يحتاج إليهم المجتمع ، ويندى بهم وجه الحياة على الأرض ، وبهم تخف مصائبها ، وتضيء دياجيرها ، وتذل صعابها ، وتحلّ مشكلاتها ، يستقيم معوجها ، وينتصف مظلومها ، فما أشبههم بواحة خضراء في صحراء قاحلة أو ينبوع عذب في أرض جرداء يأوي إليهم كل مضنى ساغب ، وكل ضال حائر » .

أما علماء الدنيا فقد ذلوا وهانوا ، صغروا عند الصغير والكبير ، وحقّروا من قبل الجليل والحقير ، أعمالهم نافت أقوالهم ، وجشعهم أوداهم حتفهم ، فضحوا في الدنيا ، فكيف حالهم في الآخرة ؟! يقول الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ : « لو أن أهل العلم صانوه ووصفوه عند أهله لسادوا به أهل زمانهم ، ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا دنياهم فهانوا على أهلها » ويقول الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ﷺ : « أحمق الناس رجل باع آخرته بدنيا غيره » ، ويقول التابعي الجليل سعيد بن المسيب رحمه الله : « إن العلماء لا يذلون إلا إذا احتاجوا إلى أموال الملوك » ، ويقول الخليفة الفاروق عمر ﷺ : « إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم ! قالوا : وكيف يكون منافقاً عليماً ؟ قال : عليم اللسان ، جاهل القلب والعمل ! » ، ويقول الأستاذ الحبيب عصام العطار حفظه الله : « من استغنى بالله عن الملوك والرؤساء كان في نفسه أكبر من الملوك والرؤساء ، ومن استغنى بالملوك والرؤساء عن الله كان في دنياه وآخرته أحقر الناس وأذل الناس وأضيع الناس » .

وعلماء الآخرة كانوا للسلطان ناصحين ، يقولون الحق ولو كان على حساب أرواحهم ، ويحمون الرعية من ظلم الحاكم أو بطش الوالي ، أو خيانة القاضي ، أو غدر أصحاب الجاه والسلطان ، وكانوا

عنوان المقال : سنة الابتلاء –٤–	بقلم : د. موفق الحكيم

يحمون العقيدة والشريعة من تحريف المبطلين وتشويه المنحرفين وعدوان الظالمين ، تجردوا عن حظوظ النفس وشهواتها ، واستهانوا بالأخطار في سبيل الله عز وجل ، كانوا أولياء الناس في أرواحهم وأعراضهم وأملاكهم ، وكانوا خلفاء الله على الأرض يسعون إلى الإصلاح ما أمكن ، ويدرؤون الفساد ما أمكن .

انظر إلى سيد التابعين الإمام الحسن البصري رحمه الله ، عندما تسلم الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز مفاتيح الخلافة وتقلد مقاليد الحكم واستنصح الإمام الحسن البصري ، فنصحه بكلمات من نور يجب أن تكون أمام عين كل حاكم أو ملك أو خليفة إذا أراد أن يحكم بما أنزل الله ويُرضي الله ورعيته في حكمه ، يقول الإمام الحسن البصري : « اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل سائل ، وقصد كل حائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المراعي ، ويذودها عن مراتع المهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده . هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال فأفقر أهله وفرق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ، وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟!! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر ، واعلم أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحبابك ، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل . لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهل ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ، فتبور بأوزارك وأوزار من معك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك » [تطور أساليب النشر :ص ١٣٥-١٣٦].

وكتب الإمام الأوزاعي إلى أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي :

« أما بعد ، فعليك يا أمير المؤمنين بتقوى الله عز وجل ، وتواضع يرفعك الله تعالى يوم يضع المتكبرين في الأرض بغير الحق ، واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله إلا وجوباً » .

وجاء في العقد الفريد لابن عبد ربه : عن مالك بن أنس قال : بعث أبو جعفر المنصور إليّ وإلى ابن طاووس فأتيناه فدخلنا عليه ، فإذا هو جالس على فُرش قد نُضدت ، وبين يديه أنطاع قد بسطت ، وجلاوزة بأيديهم السيوف يضربون الأعناق . فأومأ إلينا أن اجلسا فجلسنا ، فأطرق عنا طويلاً ، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاووس فقال له : حدثني عن أبيك ، قال : نعم ، سمعت أبي يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه ، فأدخل عليه الجور في عدله » فأمسك المنصور ساعة ، قال مالك : فضممت ثيابي من ثيابه (أي ثياب ابن طاووس) مخافة أن يملأني من دمه . ثم التفت إليه أبو جعفر فقال : عظني يا ابن طاووس ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى يقول : { **ألم تر كيف فعل ربك بعاد ❊ إرم ذات العماد ❊ التي لم يُخلق مثلها في البلاد ❊ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ❊ وفرعون ذي الأوتاد ❊ الذين طغوا في البلاد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ❊ إن ربك لبالمرصاد** } قال مالك : فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه . فأمسك المنصور ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه ،ثم قال : يا ابن طاووس ناولني هذه الدواة ، فأمسك ابن طاووس عنه ، ثم قال المنصور : ناولني هذه الدواة... فأمسك عنه ، فقال أبو جعفر : ما يمنعك أن تناولنيها ؟ قال : أخشى أن تكتب بها معصية لله فأكون شريكك فيها . فلما سمع ذلك قال : قوما عني . قال ابن طاووس : ذلك ما كنا نبغي . قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاووس فضله .

وسلطان العلماء العز بن عبد السلام عندما سأله أحد تلامذته بعد مواجهة السلطان أيوب : أما خفت السلطان ؟! فأجابه : استحضرت في قلبي خشية الله فصار السلطان في عيني كالقط . وعندما توفي رحمه الله التفت السلطان إلى بعض خواصه وقال : اليوم فقط طاب ملكي !!. وانظر إلى ما قاله الإمام الحسن البصري لوالي البصرة عمر بن هبيرة ، الذي استفتاه في أمر يطيع به السلطان ويعصي به الرحمن ، فقال له : « يا ابن هبيرة اتق الله ، فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، فتدع سلطانك ودينك خلف ظهرك وتقدم إلى ربك

وتنزل على عملك . يا ابن هبيرة : إن الله ليمنعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله ، وإن أمر الله فوق كل أمر وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وإني أحذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

يا ابن هبيرة : الحساب من ورائك سوط بسوط وغضب بغضب والله بالمرصاد .

يا ابن هبيرة : إنك إن تلق من ينصح لك في دينك ويحملك على آخرتك ، خير من أن تلقى رجلاً يُغريك ويمنيك » .

وجاء في كتاب قلائد الجواهر : لما وَلّى المقتفي لأمر الله القضاء يحيى بن سعيد بن يحيى المظفر المشهور بابن المزاحم الظالم قال له الشيخ عبد القادر الجيلاني في خطبة الجمعة : « وليت على المسلمين أظلم الظالمين ، ما جوابك غداً عند رب العالمين ، أرحم الراحمين ؟!! فارتعد الخليفة وبكى وعزل القاضي المذكور » .

وهل ننسى موقف إمام دار الهجرة مالك بن أنس ﷺ عندما سئل عن طلاق المُكره وهو يعلم ما يقصد السائل ، فإنه يعني : يكره الولي الأمة فلا تجد مخرجاً إلا اليمين هرباً من العذاب الأليم ، فقال قولته المشهورة : طلاق المكره لا يقع... وعذب بالسياط وضرب حتى خلعت كتفه ، وطيف به في الأسواق وهو يقول مع هذا : طلاق المكره لا يقع . وهل ننسى موقف التابعي الجليل سعيد بن جبير مع الحجاج الطاغية الظالم الذي قتله فسقط شهيداً بل سيداً من سادة الشهداء .

أما علماء الدنيا وما أكثرهم في هذا العصر ، وما أبشع طرائقهم ، وأفدح جرائمهم ، تجدهم في كل مكان يتملقون السلطان ويتزلفون الحكام ، ويصدرون الأحكام التي تنافي الشرع ، وتسخط الله وتلحق العذاب والهوان في حق الرعية والناس . وصدق من قال : آفة هذه الأمة فساد أمرائها وجبن علمائها . ومنهم - أي علماء السوء - من سيطر عليه لؤم مغرسه وخبث عنصره ، وأقام على خساسته ينافح عن لؤمه ويدعي الشرف للحاكم ليحظى بمنزلة الشرف عنده ، ويظهر الحقد والبغضاء لدعاة الحق بتنقصهم والاستهزاء بهم وإلحاق أشد الضرر بهم وبأسرهم ، ويستفرغ مجهوده في إظهار مثالب هؤلاء - أي الدعاة - ومناقب هؤلاء - أي الحكام ، يؤولون الآيات والأحاديث حسب هواهم وهوى السلطان ، وإن احتمل التأويل عدة معان صرفه إلى مايرضيه ويرضي سلطانه . يقول الإمام الحسن البصري [عيون

الأخبار لابن قتيبة : كتاب العلم - باب القرآن] :

« من العلماء قوم حفظوا حروفه ، وضيعوا حدوده ، واستدروا به الولاة ، واستطالوا به على أهل بلادهم . وقد كثر هذا الضرب في حملة القرآن لا كثرهم الله » . ويقول الأستاذ عصام العطار حفظه الله : « وكم رأينا الفكر والعلم مطية للأغراض والمنافع الحقيرة ، بل كم رأينا من العلماء بالإسلام نفسه من يصفون أنفسهم في خدمة أعداء الإسلام ، ويحاربون أولياءه ، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، مكسباً أو منصباً ، أو مالاً أو جاهاً أو عَرَضاً زائلاً ومتاعاً فانياً من متاع هذه الدنيا » [أزمة روحية].

يقول المعري :

توهمت يا مغرور أنك دينٌ	عليّ يمين الله ، ما لك دينُ
تسيرُ إلى البيت الحرام تنسكاً	ويشكوك جارٌ بائس وحزين

نعوذ بالله من هؤلاء العلماء كما قال الإمام العظيم سفيان الثوري : تعوذوا بالله من فتنة العابد الجاهل والعالم الفاجر فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون . ونسأل الله أن ينفعنا بما علمنا ، ويعلمنا ما ينفعنا .

للبحث صلة